

المعالم التاريخية الدينية والمدنية والعسكرية في مدينة «هنين» العتيقة

MONUMENTOS HISTÓRICOS, RELIGIOSOS, CIVILES Y MILITARES EN LA ANTIGUA CIUDAD DE HUNAÍN

محمد بن زغادي

جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان

MOHAMMED BENZGHADI

Universidad Abu Bakr Belkaid

Resumen

La ciudad de Hunaín (Honaïne), ubicada en la cuenca occidental del mar Mediterráneo fue una de las ciudades más avanzadas de la Edad Media. Fue popular por su actividad cultural, económica y desarrollo arquitectónico. El geógrafo y viajero Hasan ibn Muḥammad al-Wazzān, conocido como León el Africano, ya describe las múltiples relaciones de Hunaín con los dos extremos del Mediterráneo, y con sus dos cuencas. Su riqueza quedó al descubierto con los resultados de las excavaciones arqueológicas realizadas en la ciudad a fines del siglo pasado, por ejemplo, con un vecindario residencial que utilizaba los mejores materiales de construcción, como el mármol. Durante nuestra inspección de campo, notamos que hay una diversidad en el legado tangible que queda en Hunaín, entre lo religioso, lo civil y lo militar. En el presente trabajo hacemos una descripción de los principales bienes arqueológicos de la ciudad histórica de Hunaín.

Palabras clave: Hunaín, arqueología islámica, patrimonio material, palacios, santuarios, murallas.

Abstract

The city of Honaine, located in the western basin of the Mediterranean Sea, was one of the most advanced cities of the Middle Ages. It was popular for its cultural, economic, and architectural development. The geographer and traveler Hasan ibn Muḥammad al-Wazzān, known as Leo Africanus, already describes the multiple relationships of Honaine with the two extremes of the Mediterranean, and with its two basins. Its wealth was exposed with the results of archaeological excavations carried out in the city at the end of the last century, for example, with a residential neighborhood that used the best building materials, such as marble. During our field inspection, we noticed that there is a diversity in the tangible legacy that remains in Honaine, between the religious, the civil and the military. In the present work we make a description of the main archaeological assets of the historic city of Honaine.

Keywords: Honaine, Islamic archeology, material heritage, palaces, sanctuaries, walls.

ملخص

مدينة « هنين » الواقعة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط واحدة من الحواضر التي ارتقت في مراتب الحضارة إبان الفترة الوسطى؛ فقد ذاع صيتها في المجال الثقافي والاقتصادي والمعماري، ولعلّ المجال الأخير أصدق خبراً عن مدى تحضّر مدينة « هنين » باعتبار العمارة وعاء يصبّ فيها البناء خالص ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه وفقاً للإمكانات المادية المتاحة، فعندما يرتقي المستوى المادي لأي دولة قديماً أو حديثاً يرتقي معه الأسلوب المعماري، وقد عايننا هذا الأمر في مدينة « هنين »؛ حيث قارننا ما ذكره الجغرافي « الحسن بن محمد الوزان » الملقب « بليون الإفريقي » حول اشتغال ساكنيها في التجارة مع مدن الضفة المقابلة « كملقا » و « كطلونيا » و « ألميريا » و « ثرائهم مع ما أسفرت عنه الحفرية الأثرية التي أجريت في المدينة نهاية القرن المنصرم، لقد أزيح الثقب عن حي سكني استعملت فيه أحواد أنواع مواد البناء كالرخام مثلاً، ولاحظنا خلال معاينتنا الميدانية أنّ هناك تنوعاً في الموروث المادي الثابت المتبقّي في مدينة « هنين » بين ما هو ذي طابع ديني، ومدني، وعسكري، وهو الأمر الموجود في جميع حواضر الحضارة الإسلامية شرقاً وغرباً.

الكلمات المفتاحية: مدينة هنين، العمارة، الفترة الزيانية، المساجد، القصور، الأضرحة، الأسوار، الأبراج.

مقدمة:

يعتبر التراث بنوعيه المادي واللامادي النافذة التي نطلّ من خلالها على ماضي الأسلاف ومستواهم الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وهو ما جعله مادة خاماً للصناعة السياحية الأثرية، ورغم نوائب الدهر لا يزال جزءٌ مما أُعجز قديماً في مجال البناء والتشييد باقياً للعيان يحكي بصدق عمّا كان سائداً، ولعلّ مدينة « هنين » العتيقة الواقعة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط مثالاً نيرّ عن التراث في شقه المادي الثابت، و تجدر الإشارة إلى أن جزءاً كبيراً قد توارى تحت أقدام العصرنة من جهة، ومن جهة أخرى بفعل الحروب والإغارات الشرسة الصليبية التي تعرّضت لها المدينة قديماً، وسنعمد في هذا المقال إلى تقديم وصف أثري عمّا تبقى من شواهد الأثرية.

الإشكالية:

حتى نعطي للموضوع حقه من الدراسة لا بدّ أن نجيب عن الإشكالية التالية: في ماذا تكمن البقايا الأثرية المادية الثابتة بمدينة « هنين »؟

أهمية الدراسة :

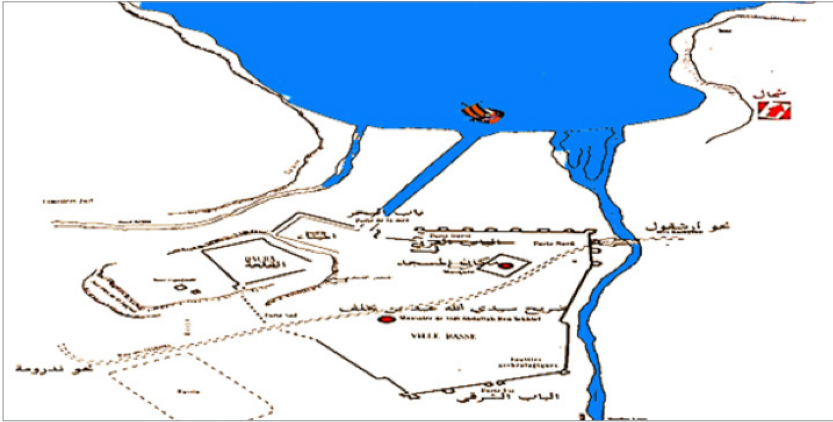
تتضمّن الدراسة في ثناياها موضوعاً بات يفرض نفسه على المجتمعات الحالية وحكوماتها، ويتمثّل في الاهتمام بالموروث المادي والانتفاع بالأصول التراثية، فلم تعد المدن العتيقة مجرد أبنية صماء لا فائدة ترجى منها خاصّة إذا كانت تستند على جبل في الطبيعة الخضراء أو تقابل زرقة البحر، فذلك سيثمن مجالها السياحي ويسهّل في نفس الوقت من استغلالها اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً، من هذا المنطلق عمدنا في هذه الورقة البحثية إلى التعريف بمدينة « هنين » العتيقة ومؤهلاتها السياحية في المجال الطبيعي والأثري، حتى تحظى بالعناية اللازمة وتُستثمر كنوزها الأثرية. تقع مدينة هنين العتيقة بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط الذي تطلّ عليه مباشرة، وهي اليوم إحدى المدن الجزائرية التابعة لولاية تلمسان إدارياً.



الصورة رقم 01: تبين الملمح العام لموقع مدينة هنين الساحلية .

اختار لها مخطوطها موقعاً بين وادين هما واد « هنين » الذي يجتازها من الجهة الشماليّة الشرقيّة، و واد « ريغو » أو « مسابي » الذي يجتازها من الناحية الغربيّة (أنظر الصورة رقم 01)، ويبدو أن اختيار موقعها لم يتم مصادفة بل كان وليد دراية تامّة بالجانِب الطبوغرافي؛ حيث استغل الموحدون ومن بعدهم الزيانيون طبيعة

التضاريس لتكون حصناً طبيعياً يسهل من مهمة الدفاع عنها ضد الغزاة.



المخطط رقم 01: يبين حدود التصميم العمراني لمدينة هنين، عن:

Khelifa Abderrahmane, *Honaïne ancien port du royaume de Tlemcen*, Argel, Dalimen, 2008, p. 180.

تنقسم المدينة إلى قسمين؛ الأول منخفض يقع في الجهة الشماليّة على مقربة من وادي « هنين »، يرجّح أن هذا الجزء من المدينة كان مركزاً لها، إذ نجدّه يشمل جميع المنخفض المحيط بالمدينة عبر الاتجاهات الثلاثة المتمثلة في الشمال الشرقي والشمال الغربي والجنوب الشرقي الذي تمتد فيه الأحياء السكنية حالياً، أما الثاني فعُلوي يرتفع عن سطح البحر بحوالي 30م، ويستند على منحدر جبلي تعلوه القلعة¹، وقد تحدّث عدد من أمّهات الكتب عن مدينة هنين، حيث ذكر « البكري » أنّها كانت في أوّل الأمر حصناً² ثم أعقبه « الإدريسي »³، ومن بعده « حسن بن محمد الوزان » الذي ذكرها في مؤلّفه « وصف إفريقيا » بأنّها كانت من المدن العامرة والآهلة بالسكان ذات مساكن جميلة التصميم إلى غير ذلك مما تشتمل عليه المدن ذات الطابع الإسلامي قديماً⁴.

1 Marçais, Georges, « Recherche d'archéologie Musulmane, Honaine », *Revue Africaine*, 1928, vol. 69, p. 344.

2 البكري أبو عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (دت)، ص 80.

3 الحسن بن الشريف الإدريسي أبو عبد الله محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج 02، ج 01، مكتبة الثقافة دينية، القاهرة 2002، ص: 534.

4 الوزان الفاسي محمد الحسن، وصف إفريقية، ط2، ج 2، ترجمة محمد حجي، ومحمد

1-نبذة عن المعالم الأثرية الدينية الإسلامية :

إنه لمن الصعب الحديث عن الموروث المادي لمدينة هنين لاندثار جلّ الشواهد الأثرية التي تركها الأسلاف بها الأمر الذي أضفى غموضاً على تاريخها وماهية تكوّنها، وقد لاحظنا من زياراتنا المتكررة للمدينة أنّ ما تبقى من بصماتهم بالمدينة أغلبه ذو طابع عسكري كالقلعة، والأسوار، والباب الشمالي، ربّما لأنها كانت بعيدة عن المجال الذي حظي باهتمام السّلاطات المحلية لبناء مشاريعهم في الفترات اللاحقة .

1-1 المساجد :

فيما يخص مساجد مدينة « هنين » ، لم ترد أي إشارات عنها، ما عدا ما ذكره « ابن مرزوق الخطيب » في مؤلفه « المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن » عن تكليفه من طرف هذا السلطان لشراء قطعة أرضية بغرض بناء مسجد⁵، ولم يتبق منه أي شيء، إذ تمّ تحطيمه كلياً، وأزيل ما تبقى منه من جدران وغيرها، وبُني عوضاً عنه مسجد جديد في سبعينيات القرن الماضي؛ تمّت توسعته فيما بعد بالتحديد سنة 1986م⁶.

بخصوص أبعاد المسجد والوصف الداخلي لبيت الصلاة وشكل وزخرفة الحراب فإنه لا يوجد أي نص مكتوب باستثناء ما ذكره ابن مرزوق على أنه مسجد خطبة⁷، الأمر الذي يدلّ حسب ظننا أن صلاة الجمعة والعيدين كانت تُؤدّى فيه، ففيهما تُقدّم الخطب ، كما يدلّ ذلك على أنه كان كبير الحجم مقارنة بهذه الوظيفة، أمّا الشاهد المادي فهو الآخر ينحصر فقط فيما قدّمه « عبد الرحمن خليفة » بخصوص المئذنة عن « شارل موبريكس » و « كنال » اللذين رسما صورة عن نواتها المركزية التي شاهدها موجودة بين البرجين الرابع والخامس بالجهة الغربية من أسوار المدينة، يقدر ارتفاعها بـ18.50م، أما ضلعها فيقدر طوله بـ1.60م، مادّة بنائها من الآجر والحجر المشدّب، كما تمّ العثور عند القيام بعملية الحفر أثناء التوسعة التي قام بها أهالي المدينة للمسجد

الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1983، ص: 15 .

5 ابن مرزوق التلمساني محمد، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريّا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعيّاد الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص: 403.

6 Khelifa Abderrahmane, *op. cit.*, p. 309.

7 ابن مرزوق التلمساني محمد، مصدر سابق، ص 403.

سنة 1986 على بقايا أعمدة بيت الصلاة⁸، وإذا ما قارنا ارتفاع تلك النواة بارتفاع معذنة مسجد سيدي أبي الحسن الموجود بمدينة تلمسان المقدّر بـ 14.26م الموجود في مدينة تلمسان؛ سنلاحظ أنها أكثر ارتفاعاً منها، الأمر الذي يفرض احتمالاً أنّ حجم مسجد «هنين» كان أكبر من مسجد «سيدي أبي الحسن»، وهو ما يؤكد ما ذكره «ابن مرزوق» من أنه مسجد خطبة، ذلك إذا ما سلمنا بفرضية وجود توافق وتناسب بين أحجام المساجد مع المآذن التي تعلوها.

2- الأضرحة :

• لم تحط بميناء مدينة «هنين» السفن المحملة بالسِّلَع فقط، فلم تكن مقصد التّجار لوحدهم، إنّما قدّم إليها سواء من الأندلس عبر مينائها، أو من المدن المجاورة لها عدد من العلماء الذين فضّلوها للعيش أو نشر العلم، ربّما لا لشيء إلاّ لكونها كانت من بين الحواضر الآهلة بالسّكان، ومن أولئك العلماء الذين وفدوا إليها نذكر «أحمد بن الحسن الغماري» الذي كان يحضر صلوات الجمعة بهنين⁹، و«أبي عثمان سعيد ابن محمد العقباني»، و«أبي علي حسن بن السيد الشريف» اللّذين وُلّيا بها قضاء الجماعة¹⁰، ومن بين الأضرحة الموجودة بالمدينة نذكر:

أ-ضريح إبراهيم الأبلي :

يقع فوق منحدر صخري يرتفع عن سطح البحر بـ 117م، تشير الرواية الشعبيّة السائدة عند سكان المدينة إلى أن هذا الولي الصّالح قد دفن بذلك المكان ليقوم بحراسة الميناء والسّفن التي ترسو به من هجمات الأعداء، وفيما يخصّ ميلاده أو سيرته أو وفاته فلا يُعرف عنها شيء، لكن يمكن القول أن أصله ينحدر من «آبلة»¹¹، ذلك إذا ما ربطنا لقبه الأبلي «بآبلة».

بعد المعاينة الميدانيّة والقياسات التي أخذناها للمعلم الأثري وجدنا أنّ ضريحه

8 Khelifa Abderrahmane, *op. cit.*, p. 309.

9 المليتي المديوني مريم الشريف، البستان في ذكر الأولياء والعلماء يتلمسان، تحقيق محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، 1908، ص: 31.

10 بن خلدون يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. مج. 01، مطبعة بيبير بونظانا الشرقية، الجزائر، 1903، ص: 72.

11 آبلة: مدينة تقع بشمال الأندلس، كانت جزءاً من بلاد البرتغال، وهي عبارة عن قرى مجتمعة أهلها يركبون الخيل، يُنظر: الحسني الشريف الإدريسي أبو عبد الله محمد، مصدر سابق، ص: 534.

يتكون من قاعتين؛ الأولى شكلها مربع تقريباً، جدارها الشرقي والغربي متساويان بطول قدره 3.96م، أما طول الجدارين الشمالي والجنوبي فمختلفان، إذ يبلغ طول الجدار الشمالي 3.90م في حين يبلغ طول الجدار الجنوبي 4م، وتنتهي الجدران الأربعة بشرفات في زواياها الأربعة، أما سمكها فقد بلغ 60سم، ويوجد مدخل هذه القاعة على بُعد 60سم نحو الغرب من زاويتها الشمالية الشرقية، عرض فتحته يُقدر بـ60سم، أما ارتفاعها فيُقدر بـ1.40م يلي المدخل مباشرة على بعد 1.20م قبر سيدي (إبراهيم الأبلي) «مغطى بقمماش أخضر اللون، يبلغ نتوءه عن الأرضية بـ20سم، أما طوله فيقدر بـ1.80م وعرضه 40سم، تتقدمه كوتان مستطيلتا الشكل بهما سواد ناتج عن إحراق شموع وغصينات الأشجار المجاورة (السنوبر)، ويبلغ عرضهما 20سم، لكن طولهما يختلف حيث يبلغ طول الكوة الأولى 45سم بينما الثانية 57سم، تنتهي بعقد مدبب، تتوزع بالزوايا الأربعة للضريح أربعة أقواس حدوية غائرة في جدران الضريح التي تحمل عبارة «الله أكبر» حديثة الكتابة باللون الأسود وبعض الأشكال، تعلو تلك الأقواس قبة كروية الشكل خالية من أي زخرفة ترتفع عن الأرضية بحوالي 4.10م، أما طول قطرها فيقدر بـ3.50م وهناك من يرى أن هذا النوع من القباب لا ينسجم كثيراً مع الضريح ذي الشكل المربع لعدم توافق الشكل الدائري مع المربع في العمارة الإسلامية، وأن الشكل المذنب أو البصلي أو الخماسي أنسب لذلك؛ كما أن هذا التصميم الهندسي لا يضفي قوة ومتانة على بنائها لأن قاعدتها في هذه الحالة تركز على أربعة نقاط فقط، في حين يبقى الجزء الأكبر من مجالها الداخلي معلقاً في الفراغ، خاصة وأن قبة ضريح سيدي إبراهيم الأبلي كبيرة الحجم، الأمر الذي يفرض أن تُدعم جيداً¹².

فيما يخص القاعة الثانية فهي أكبر من القاعة الأولى شكلها مستطيل، ونفس الشيء بالنسبة لطول جداريها الشمالي والجنوبي فهما غير متساويان مثل القاعة الأولى، إذ يبلغ طول الجدار الشمالي 5.37م؛ أما الجنوبي فيبلغ 5.54م، وبالنسبة للجدارين الشرقي والغربي فهما متساويان، حيث يقدر طولهما بـ3.48م، ما يلاحظ أنه بالرغم من التصاق القاعتين إلا أنهما لم يأتيا على استقامة واحدة، حيث انحرف الجدار الشمالي لهذه القاعة عن القاعة الثانية نحو الجنوب بـ63سم، يبعد مدخلها عن زاويتها الشمالية الشرقية نحو الغرب بـ2.10م، ويقدر عرضه بـ53سم، أما ارتفاعه فيبلغ 1.40م من الأرضية الداخلية للضريح، تعلو القاعة قبة أصغر حجماً من قبة القاعة الأولى، وقد تساقط جزؤها الأيمن وهي لا تزال على حالها من دون أي ترميم كما أنها

12 ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، ط01، دار الشروق، القاهرة، 1994، ص18.

خالية من أي زخرفة يبدو أن هناك عدم تناسب في حجم القبة والقاعة في هذا المعلم، حيث جاءت قبة القاعة الأولى أكبر حجماً في حين قاعتها صغيرة؛ أما القبة الثانية فقد جاءت صغيرة في حين قاعتها أكبر، يبلغ ارتفاعها 3.90م وطول قطرها 2.53م وهي الأخرى كروية الشكل وخالية من أي زخرفة، وفيما يخص مواد البناء المستعملة في هذا المعلم الأثري فقد تمثلت في مادة الآجر والطوب لتلييس الحائط، والملاط كمادة لاحمة بين الآجر، لون الجدران أبيض من الداخل والخارج.



الصورة رقم 02: تبين قاعتي ضريح سيدي إبراهيم على جهة اليسار.

تجدر الإشارة إلى أنه عند استعلامنا من الذاكرة الشعبية لمدينة «هنين» عن الضريح، تمّ إبلاغنا أنه تعرّض منذ سنتين لعملية نهب وسرقة، فقد تمّ حفر أرضية الضريح لاستخراج ما يكون مدفوناً بجانب قبر الولي الصالح، لكن لم يتم العثور على أي شيء، وتمّ إيقاف المعتدين على المعلم الأثري.

توجد عند حافة الجرف الصخري على يمين الضريح قاعة مستطيلة الشكل ذات قياسات مختلفة، لكن مع فارق بسيط، إذ يبلغ طول الجدار الشمالي 8.87م والجنوبي 8.80م، أما عرض الجدار الشرقي فيقدر بـ 3.80م والغربي بـ 3.65م، وبالنسبة لسمكها فقد بلغ 60سم، يوجد مدخلها بالجدار الجنوبي على بعد 2.50م من زاويتها الجنوبية الغربية يبلغ عرضه 90سم وارتفاعه 1.90م عن مستوى الأرضية الداخلية التي تنخفض عن مستوى الأرضية الخارجية بحوالي 20سم، وهننا نفتح قوساً للإشارة إلى أن قاعتي

الصَّريح هما أيضاً منخفضتين عن مستوى الأرضية الخارجيّة، سقف القاعة يقدر بـ 2.35م تم إنجازه من القصب وأغصان شجر الصنوبر، الملاحظ أنه لاوجود لقبر أي ولي صالح بها، ربّما كانت تستعمل لإيواء عابري السبيل، أو لاستراحة زائري ضريح سيدي إبراهيم الأبلي، ناهيك عن وجود دكة حجرية طولها 1.60م وعرضها 1م، أما ارتفاعها فيقدر بـ 30سم، بُنيت هذه القاعة من الحجارة غير المشدّبة والملاط كمادة لاحمة، وقد لُبّست بمادة جييرية أكسبتها لوناً أبيضاً.



الصورة رقم 03: تبين القاعة المستطيلة الموجودة على يمين ضريح سيدي إبراهيم عند حافة الجرف الصخري.

2- نبذة عن المعالم الأثرية المدنية الإسلامية :

سجّل هذا النوع المعماري وجوده بقوة في مدينة هنين، لكن لم يتبق فيها أي معلم أثري نتيجة تأثير العوامل المختلفة سواء البشرية أو الطبيعية، وبالرغم من أن مدينة «هنين» كانت من الحواضر الرائدة في المجال المعماري والعمراني حسب ما ذكره عنها الرّحالة والجغرافيون قديماً «كالإدريسي» الذي وصف حالتها العامة أنها كانت عامرة بالسكان¹³ الأمر الذي يؤكد أنها تضمّنت عمارة مدنية كالمساكن والحمامات... إلخ.

1-2 المساكن :

13 الحسن بن الشريف الإدريسي أبو عبد الله محمد، مصدر سابق، ص: 534.

ذكر « الحسن بن محمد الوزان » عقب زيارته إلى مدينة هنين في القرن 15م ما يلي: «... ودورهم في غاية الجمال والزخرفة، لكل مسكن بئر من الماء العذب، وفناء مغروس بكرم معروش، أرضيتها مسطوح الحجرات مبلطة ومزينة بالزليج الملون، مزينة بنفس الزليج والجدران مكسوة كلها بالفسيفساء...»¹⁴.

يبقى الوصف الذي قدّمه هذا الجغرافي أحد الطرق التي يمكن من خلالها التعرف على ماهية تصميم هذه العمارة « بهنين » لأنها اختلفت كليّة، إذ لم يتبق أي مسكن قائم بها يمكن من خلاله بناء صورة واضحة المعالم عنها، هذا الأمر ليس وليد السّاعة؛ لكنّه يعود لفترة زمنية طويلة، فحسب ما ذكره « رينيه باسي » الذي زار المدينة في نهاية القرن التاسع عشر أنها كانت خاوية على عروشها، ولم يشاهد بقايا أي مسكن قائم داخل أسوارها¹⁵، إلا أنه يمكن أمام ذلك التعرف على جزء من التصميم الهندسي لمساكنها، وما تحلّت به من زخرفة ورونق فني من خلال الحفريّة التي أجريت برئاسة « عبد الرحمن خليفة » مقابل دار البلديّة¹⁶، التي تعتبر مرآة تعكس ما كان قائماً بالمدينة.

2-2 القصور:

ما تبقى من هذا النوع المعماري بالمدينة هو ما نقله لنا « عبد الرحمن خليفة » عن « جانييه » الذي ذكر أنه شاهد بقاياها جنوب المرتفع الذي يقع فيه ضريح « سيدي إبراهيم الأبلي » على مقربة من واد « هنين » والطريق المؤدّي إلى « أورشقول »، وقد كان يلقبه سكّان المدينة حينئذ « بدار سيدي محمد » أو « دار الإمام »، أمّا فيما يخص شكله فقد جاء مستطيلاً بطول يقدر بـ 60م وعرض يقدر بـ 40م، يتربع على مساحة قدرها 2400م² وهو ما يفسّر توجه « جانييه » إلى كونه كان قصراً صغيراً وليس مسكناً، لاسيما وأنه كان يتضمّن أبراجاً متّصلة بالأسوار وموزّعة على زواياها الأربع لحراسته، مادة بناء أسواره التي أحاطت به من جهاته الأربع من مادة « الطابيّة » التي تضمّن له القوّة والصلابة لحماية من كان يسكنه¹⁷، تجدر الإشارة أننا لم نشاهد أية بقايا لهذا القصر بعد معاينتنا للمكان الذي أصبح مشغولاً بعدد من المساكن.

14 الوزان الفاسي بن محمد الحسن، مصدر سابق، ص: 15.

15 René Basset, *Nedromah et Les Traras*, Paris, Ernest Leroux Editeur, 1901, pp. 103-104.

16 Khelifa Abderrahmane, *op. cit.*, p. 31.

17 *Ibid.*, p. 294.

3-2 الحِمَامَات :

مما لا شك فيه أن مدينة « هنين » قد احتوت على الحِمَامَات بحكم ما توفر فيها من ثروة مائية، وكونها أيضاً من المدن الأهلة بالسكان والمقصودة من قبل الخاصة والعامّة من الناس؛ لأهميتها كنقطة عبور نحو الضفة الأخرى عبر مينائها. وأمام اختفاء البقايا الأثرية الخاصة بهذا المعلم الأثري في المدينة يبقى الوصف الذي قدّمه « جيورج مارسيه » في خضم حديثه عن المعالم الأثرية وتاريخ مدينة « هنين » في مقاله الموسوم بـ: « بحث أثري إسلامي بهنين » هو السبيل الوحيد للتعرف على ذلك المعلم الأثري¹⁸، لقد ذكر أنه كان بالقرب من الباب الشمالي للمدينة وسط البساتين التي كانت موجودة هناك ثلاث قاعات شكلها مستطيل متجاورة فيما بينها، وقد تبيّن له بعد الاستفسار عنها من أعيان المنطقة أنّها كانت تشغل وظيفة حِمَام، وعلى بعد بعض الأمتار من هذه القاعات جهة الشرق يوجد بئر، أغلب الظن أنّه كان يستعمل لتزويد الحِمَام بالماء، ناهيك عن أنّه قد عُثِر أيضاً على خزّان مائي سقّفه نصف أسطواني مادة بنائه من الحجارة غير المشدّبة والطابية والآجر، وهو ما يدعم فكرة أن تلك القاعات كانت حِمَاماً، إذ لا يعقل وجود هذا النوع من العمارة من دون وجود مياه وفيرة، لذلك كان لزاماً على المعماري توفير ذلك¹⁹.

4-2 الطّاحونة :

تعتبر هذه الأخيرة من الانجازات المدنية التي برع المسلمون في استخدامها قديماً في مجال الزراعة، وذلك منذ حوالي القرن التاسع ميلادي للحصول على منتوج زراعي جيد يسمح لهم بتحقيق الاكتفاء الذاتي، وضمان الاستمرارية في الإنتاج²⁰. لقد أشار « حسن بن محمد الوزان » إلى وجود طاحونات بالقرب من وادي « هنين » الذي يجتاز المدينة من الجنوب نحو الشمال بالجهة الشرقية، بالقرب من بساتين الكرز والإجاص والخوخ التي كانت تسقى من نفس الوادي²¹، حسب ما ذكره « عبد الرحمن خليفة » أن جزءاً من الأسوار التي كانت تستند عليها الطاحونة لا تزال

18 Georges Marçais, *loc. cit.*, p. 333.

19 *Ibid.*, p. 346.

20 عطية الجيار، دور العرب المسلمين في تطوير الزراعة وطرق الري في إفريقيا المسلمة لتحقيق التنمية المستدامة، الملتقى الدولي حول مقومات تحقيق التنمية المستدامة في الاقتصاد الإسلامي، جامعة قلمة، الجزائر، 2012، ص: 57.

21 الوزان الفاسي بن محمد الحسن، مصدر سابق، ص: 15.

موجودة هناك بشكل عمودي على يمينها ويسارها، وذلك بالتحديد قبل سنة 1958م حينما كانت المدينة شبه فارغة من السكان، وينحصر دورها في تثبيت الطاحونة، والتحكم في سرعتها حتى يمتلئ الدولاب بالماء جيداً، أما مادة بنائها فقد كانت من الطابية التي تزيدها صلابة²².

3- نبذة عن المعالم الأثرية العسكرية الإسلامية :

مما لا شك فيه أنّ وجود مدينة هنين في موقع استراتيجي حسّاس لإطلاقتها المباشرة على البحر الأبيض المتوسط واحتوائها على الميناء جعلها عرضة لخطر القراصنة والدول المجاورة، خاصّة أنّها أصبحت في مرحلة من مراحل حياتها مدينة أهلة بالسكان والنشاطات المختلفة، الأمر الذي فرض تشييد منشآت ذات طابع عسكري، حتى تحقق الأمن والاستقرار اللذين يزيدان من رقيها وتقدمها على مختلف الأصعدة.

1-3 القلعة :

من المعالم الأثرية العسكرية التي كانت قائمة نذكر القلعة، لقد عرفت مدينة « هنين » باسم « الحصن » قبل أن تبرز كحاضرة على غرار حواضر المغرب الإسلامي الأهلة بالسكان، ومبانيهم المختلفة الطابع بين ما هو ديني ومدني وعسكري، ونشاطاتهم المتنوعة بين ما هو تجاري بحكم وجودها على الساحل وامتلاكها للميناء، وبين ما هو فلاحي لجودة هوائها وتربتها وتوفر الماء لسقي المزروعات والبساتين، يُرجّح أن القلعة هي من كان يقصدها « البكري » الذي عاش في القرن 5هـ/11م بالحصن في حديثه عن مدينة « تلمسان » ونواحيها، إذ أشار إلى اسم حصن « الفروس » و« حصن الوردانية » قائلاً أنّ « حصن هنين » هو أكثر الحصون ثماراً وبساتيناً²³، الأمر الذي يؤكّد أنها أقدم المباني بمدينة « هنين »، و كانت المكان المفضّل عند الإسبان ساعة احتلالهم المدينة، فقد تمركزت بها حاميتهم العسكرية التي استقرت بالمدينة ما بين سنتي 1531 و1534م²⁴.

22 Khelifa Abderrahmane, *op. cit.*, p. 310.

23 البكري، أبو عبيد الله، مصدر سابق، ص 80.

24 Khelifa Abderrahmane, « Honaïne à Travers ses monuments », *Colloque National sur: Honaïne passé et présent*, Orán, Université d'Oran, 1985, p. 16.

2-3 برج سيدي إبراهيم الآبلي :

يعتبر هذا البرج من النقاط الدفاعية المهمة بمدينة «هنين»، لموقعه الاستراتيجي الذي مكّنه من توسيع مجال الرؤية عبر الجهات الأربع، وإشرافه على المدينة مباشرة، يقع فوق مرتفع صخري يطل من خلاله على البحر مباشرة بارتفاع يقارب 117م، مجاوراً للضريح سيدي إبراهيم الآبلي الذي أخذ اسمه منه، أمّا فيما يخص موقعه الفلكي فيقع بين خطي طول 1.39° و 23.48° غرباً وبين دائرتي عرض 10.35° و 54.97° دقيقة شمالاً.



الصورة رقم 04: تبين ما تبقى من القلعة الموجودة في مدينة هنين.

مظهره الخارجي مربع الشكل، طولاً ضلعيه الجنوبي والغربي متساويان، إذ يبلغان 5.50م، أما طولاً ضلعيه الشمالي والشرقي فمختلفان اختلافاً طفيفاً؛ إذ يُقدَّر طول الضلع الشمالي بـ 5.69م وطول الضلع الشرقي بـ 5.55م، نفس الشيء بالنسبة للارتفاع، حيث يختلف هو الآخر بين الجدارين الشمالي والشرقي اللذين يبلغ ارتفاعهما حوالي 7.30م، أما الجدار الجنوبي فيبلغ ارتفاعه 6.80م توجد به نافذة مربعة تعدّ علينا أخذ مقاساتها لارتفاعها البالغ 4.50م عن الأرضية، ويُرجَّح أنها كانت تستعمل للوصول إلى أعلى البرج بواسطة سلّم يتم سحبه بعد الوصول إلى أعلى، حتى يبقى الحراس في مأمن من الأعداء.

في حين يعد الجدار الغربي الأقل ارتفاعاً بين جدران البرج، إذ يبلغ ارتفاعه 4.40م فقط، ربما يكون جزؤه العلوي قد تساقط في وقت سابق، مادة بناء هذا البرج هي الطابية التي اعتاد معماريو المغرب الإسلامي قديماً على استعمالها في تشييد هذا النوع المعماري لمقاومتها العالية لعاديات الزمن، ولعل بقاء هذا المعلم الأثري رغم بُعد الفترة الزمنية التي شهدت ميلاده أكبر دليل على جودة خواصها الميكانيكية.

3-3 الأبواب :

توزعت بمدينة هنين خمسة أبواب على مستوى محيط نسيجها المعماري، منها ما اندثر تماماً ولم يتبق منه إلا النصوص الكتابية التي تُحدث عنها مما تركه بعض المهتمين بدراسة العمارة الإسلامية، وتنحصر تلك الأبواب فيما يلي :

أ-الباب الشمالي : يقع هذا الأخير بالزاوية الشمالية الشرقية من السور الشرقي على مقربة من وادي « هنين » وكان يُعرف كذلك باسم « باب السانية » نسبة للطاحونة المائية التي كانت توجد بمحاذاته على طول الواد، والتي أشرنا إليها سابقاً، ينفتح مدخله نحو البحر مباشرة، يوجد على يمينه ويساره برجين لحراسته، وقد ذكر « جيورج مارسيه » أنه بُني من الآجر ولُبس بالحصّ، كما تضمّن زخرفة رائعة من المعينات المتشابكة فيما بينها مصنوعة بالآجر، شبيهة بزخرفة معذنتي مسجد « سيدي الحلوي » و « سيدي أبي مدين » في مدينة « تلمسان »²⁵، لكن لم يتبق من هذا الباب أية بقايا ماعدا فتحة مدخله البالغ عرضها 10م .

ب-باب السنون : يقع هذا الباب شرق المدينة ، كان يسمى أيضاً عند سكانها بباب « السنون » أو « التاسنون » حسب الذاكرة الشعبية للمدينة، سُمي كذلك لأنه كان يستعمل من طرف النسوة لغسل الملابس بوادي « هنين » الذي لا يبعد عنه إلا حوالي 09م، شكله عبارة عن فتحة استطالتها عرضية يقدر عرضها 4.50م، أما ارتفاعها فيقدر بـ 2.5م وسمك الجدار الذي يتصل بها هو الآخر 2.5م و يخلو من أي زخرفة ، ويحاط باب السنون من جهتي اليمين والشمال ببرجين شكلهما مربع ، طولهما 6.40م وعرضهما 4.50م، أما ارتفاعهما 50م، وقد حظي بعملية ترميم سنة 2001م، سنة 2011م، لكنّها لم تشمل جميع أجزاء المدينة .

ج-الباب الغربي : كان يستخدم من طرف التجار سواء الذين قصدوا المدينة للسفر

25 Georges Marçais, *loc. cit.*, p. 348.

عبر مينائها، أو الذين رست مراكبهم بها²⁶، لا يزال مدخله قائماً لحد الساعة، وقد حظي هو الآخر بعملية ترميم سنتي 2001 و2011، ما تبقى من الباب هو فتحة عرضها 5.25م وسمك جدرانها 2م، لا يعلوه أي قوس؛ وقد لاحظنا أنه كان مغلقاً بمجموعة من الألواح الخشبية لمنع المرور عبره؛ لأنه يؤدي مباشرة إلى حديقة أحد سكان المدينة. د-باب الخرجة: كان هذا الباب موجوداً بالسور الجنوبي للمدينة، يفتح مباشرة على جبل «المنزل» وقد اندثر كلياً.

هـ-الباب البحري: سمي كذلك لانفتاحه على القناة التي تصل الميناء بالبحر؛ مما يدل أنه كان مخصصاً فقط للسفن التجارية، ويبدو أن هذا الباب كان كبير الحجم، وذلك وفقاً لما ذكره «جيورج مارسيه» عن عرض فتحة مدخله التي بلغت 8.50م، كما ذكر أن الإطار الذي كان يعلوه بقوس حدوي مزخرف بزخارف رائعة بين النباتية والهندسية تشبه إلى حد كبير -على حد قوله- الزخرفة الموجودة بمدخل مغذنة «المنصورة»، فقد اتفقا على وجود عنصر البنيقة وبراعم الأزهار المتشابكة فيما بينها والمرصعة بقطع من الزليج، ونظراً لذلك التشابه نسب «جيورج مارسيه» صنعه «للمرينيين» في الفترة التي احتل فيها «أبو الحسن المريني» «تلمسان» وأرسل إليه فرقة من جيشه لاحتلال مدينة «هنين»²⁷، بينما نسب «رشيد بورويبة» بناءه «للزيانيين»²⁸، ربما لأن المدينة عاشت تحت الحكم الزياني أكثر مما عاشته تحت حكم الدولة «المرينية»، لأنها كانت الرئة الاقتصادية «للزيانيين» لذلك أبدعوا في تنميق وتحسين مينائها معمارياً، ويرجع «عبد العزيز محمود لعرج» هذا الاختلاف إلى أن كلاً من «المرينيين» و«الزيانيين» قد استقوا مادة موضوعاتهم من مصدر واحد ألا وهو الموروث «المرابطي» و«الموحدي»²⁹، لذلك يصعب التفرقة بينهم.

4-3 الأسوار:

كباقي الميزات التي ترسخت بالمدن العتيقة في المغرب الإسلامي مثل مدينة «ندرومة» و«تلمسان»؛ احتوت مدينة هنين على عمارة عسكرية لكونها مدينة ساحلية على درجة كبيرة من الأهمية التجارية، ولأن جانبها الشمالي الغربي كان

26 Khelifa Abderrahmane, Honaïne ancien..., *op. cit.*, p. 301.

27 Georges Marçais, *loc. cit.*, p. 349.

28 Bouruiba Rachid, *L'architecture Militaire de l'Algérie Médiévale*, Argel, OPU, 1983, p. 92.

29 محمود لعرج عبد العزيز، مدينة هنين: تاريخها وآثارها، الملتقى الدولي الخامس حول التراث العلمي والثقافي لمدينة ندرومة ونواحيها، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006، ص: 145.

محدوداً بجرف صخري يمتد طوله على حوالي 02 كلم بشكل عمودي على المدينة، صُعب عليها مراقبة تلك الجهة لصعوبة الرؤية، وسهّل بالمقابل مباغتتها من طرف المحتلّين، لذلك اعتمدت في تحصينها على الأسوار الدفاعية المنيعّة؛ والتي طالما كانت رادعا لها من أي هجوم قادم من البحر أو من جهة البر وكذا الأبراج المتّصلة بالأسوار والمنفصلة عنها هنا وهناك .

يقدر الطول الإجمالي لسور مدينة هنين بحوالي 1200م، بقيت منه بعض الأجزاء التي عكست ما كان للمدينة من مستوى معماري رفيع ينمّ عن مكانتها عند منشئها، فضلا عن مستواها الاجتماعي والاقتصادي، وقد بُني من مادة الطابية لقوّة تحملها ضربات العدو ووفرته بالمنطقة .

تحيط الأسوار بالمدينة العتيقة من جوانبها الأربعة مشكلة شبه منحرف قاعدته الكبرى نحو الشّمال، فأطول الأسوار هو السور الشّمالي، حيث يقدر طوله بـ320م، ويتضمّن سبعة أبراج مقارنة بالسور الغربي الذي يقدر طوله بـ150م، ويتضمن تسعة أبراج، ما يفسّر أن المعمارى وظف عبقريته هناك للاستفادة من طوبوغرافية الموقع الذي بنيت به المدينة، فبالجهة الشّمالية يمر وادي « هنين » الذي ساعد في تعزيز القوة الدفاعية للأسوار، إذ كان بمثابة خندق مائي يقف حاجزاً أمام العدو، ويعمل على تكسير جبهات الهجوم، أمّا الجهة الغربيّة فقد تقدّمها مرتفع يساعد العدو على الدّخول إلى المدينة، لذلك عمد المعمارى إلى تحصينها جيداً، ويقدر ارتفاعها بحوالي 7م لكن حسب ما ذكره « عبد الرّحمن خليفة » أن الطول الحقيقي للأسوار ليس هو ذلك، إذ بعد إجرائه للحفريّة الأثريّة بالقرب منها ووصله إلى مستوى أرضيّة المدينة قديماً تبين أن طوله 10م³⁰، أمّا فيما يخص سمكها فيبلغ 1.5م. والملاحظ أن الشّرفات التي تعلوها لم تعد تظهر للعيان بصورة مكتملة نتيجة تعرّضها لظاهرة التقرّم الناتجة عن اصطدام الرّياح المحملة بحبيبات الرّمال مع قمم الأسوار منذ تشييدها، كما هو موضّح في الصورة رقم 05 .

الخاتمة :

حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية إمطة اللّثام عن المعالم التاريخيّة الدينيّة والمدنيّة التي جادت بها قريحة الإنسان في مدينة « هنين »، التي تعتبر واحدة من المدن الضّاربة جذورها في التّاريخ، ويمكن القول أنّ العمارة بشكل عام هي لغة موحّدة



الصورة رقم 05: تبين جزءا من السور الشمالي المبني بمادة الطابيا pize في مدينة هنين العتيقة .

وقاسم مشترك بين جميع الحضارات، إذ لم تقم واحدة منها إلا وتبنت أسلوباً خاصاً في البناء، ومن خلالها—أي العمارة—يمكن إلى حد ما استقراء ماضي البشرية وفهم الجانب الخفي منها، فإذا ما تجوّلت في مدينة «هنين» استشعرت مدى عمق ماضيها، وتيقّنت أنها كانت حاضرة ساحلية في يوم من الأيام وما يزيد أهمية المعالم التاريخية التي ذكرناها هو تحليتها بالموضوعية الكاملة، إذ تنقل لنا أخباراً صادقة خالية من أي ذاتية، على نقيض الأحداث التي تُسرد عن ماضي الدول في الكتب، وقد قارنا مثلاً ما أسفرت عنه إحدى الأبحاث التي أُجريت في نهاية القرن المنصرم مع ما ذكرته إحدى كتب الرحالة الجغرافيين عن مساكنها واتّضح جلياً أنّ الوصف كان صادقاً بعد مقارنته مع ما عُثر عليه، وإلا ستبقى أخبار الكتاب محلّ ريبه وشك.

وبالموازاة مع دورها في البحث العلمي التاريخي، تقدم المعالم التاريخية الموجودة في مدينة «هنين» وغيرها من بقاع العالم دوراً اجتماعياً يتمثل في توحيد الشّعور بالانتماء؛ فكل شرائح المجتمع تلتقي في ماضٍ واحد مشترك بينها، وكذا تعزيز أواصر الأسرة الواحدة أثناء قيامها برحلة جماعية لمعلم تاريخي ما، كما أنها تقدّم دوراً اقتصادياً بارزاً فالكثير من الدول الرائدة في مجال السياحة تمتلك مخزوناً أثرياً لا بأس به.

أمام هذه الامتيازات التي ذكرناها وغيرها ندعو القائمين على قطاع التّراث المادّي الثّابت في « هنين » لوضع خطة مستدامة للنهوض بهذا المجال الحيوي، خاصّة بعد ظهور مصطلح « الانتفاع بالأصول التّراثيّة » وبعد توارى جزء كبير من المعالم التّاريخيّة في مدينة هنين جرّاء تعرّضها للاحتلال الإسباني، الذي خرّب عمرانها في القرن السّادس عشر ميلادي.